تسامح في حلف، وغير ذلك أو الأمر الذي يعم بضرره أو بنفعه، وقرئ أمر جميع وفي قوله: إذا كانوا معه على أمر جامع أنه خطب جليل لا بد لرسول الله ﷺ فيه من نوي رأي وقوّة يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضئ بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايته، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه فمن غلظ عليهم وضيق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط الحاجة إليه واعتراض ما يهمهم ويعنيهم وذلك قوله: ﴿لبعض شانهم﴾، وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أنّ الأحسن الأفضل أن لا يحنثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه وقيل: نزلت في حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير إذن وقالوا: كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل، ولا يتفرقون عنهم والأمر في الإذن مفوّض إلى الإمام إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن على حسب ما اقتضاه رأيه.

لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾.

إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضًا، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضًا وينادي باسمه الذي سماه به أبواه ولا تقولوا: يا محمد ولكن يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض، والتواضع ويحتمل لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم، وفقيركم غنيكم يسأله حاجة فربما أجابه وربما ردّه قال: دعوات رسول الله ﷺ مسموعة مستجابة ﴿يتسللون﴾ ينسلون قليلاً قليلاً ونظير تسلل تدرّج وتدخل، واللواذ الملاوذة وهو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا يعني: ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض و﴿لواذًا﴾ حال أي: ملاوذين وقيل: كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيأذن له فينطلق الذي لم يؤذن له معه، وقرئ: ﴿لواذًا﴾ بالفتح، يقال: خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه ومنه قوله تعالى: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، وخالفه عن الأمر إذا صدّعته دونه ومعنى ﴿الذين يخالفون عن أمره﴾ الذين يصدّون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون، فحذف المفعول لأنّ الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه، الضمير في أمره لله سبحانه أو للرّسول ﷺ والمعنى: عن طاعته ودينه ﴿فتنة﴾ محنة في الدنيا ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾ في الآخرة وعن ابن عباس رضي الله عنهما فتنة قتل وعن عطاء زلازل وأهوال عن جعفر بن محمد يسلط عليهم سلطان جائر.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾.

أدخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد، وذلك أنّ قد إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما، فوافقت ربما في خروجها إلى معنى التكثير في نحو قوله:

فإن تمس مهجور الفناء فربما ... أقام به بعد الوفود وفود

ونحوه قول زهير:

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله

والمعنى: أنّ جميع ما في السمٰوات والأرض مختصة به خلقًا وملكًا وعلمًا، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجتهدون سترها عن العيون وإخفائها، وسينبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم والخطاب والغيبة، في قوله: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه﴾ يجوز أن يكونا جميعًا للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عامًا ويرجعون للمنافقين والله أعلم عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفرقان مكية

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾.

البركة كثرة الخير وزيادته ومنها تبارك الله وفيه معنيان تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، والفرقان مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقًا مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال ألا ترى إلى قوله وقرآنًا فرقناه[2] لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً وقد جاء الفرق بمعناه قال: ومشركي كافر بالفرق، وعن ابن الزبير رضي الله عنه على عباده وهم رسول الله ﷺ وأمّته كما قال: لقد أنزلنا إليكم قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا.

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، والواحدي، زيلعي 2/453.

(2) قال أحمد: والأظهر ههنا هو المعنى الثاني؛ لأنّ في أثناء السورة بعد آيات، وقالوا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. قال الله تعالى= = كذلك أي: أنزلناه مفرّقاً، كذلك لنثبت به فؤادك، فيكون وصفه بالفرقان في أوّل السورة، والله أعلم، كالمقدّمة والتوطئة لما يأتي بعد.

والضمير في ﴿ليكون﴾ لعبده أو للفرقان ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير ﴿للعالمين﴾ للجنّ والإنس ﴿نذيرًا﴾ منذرًا أي: مخوّفًا أو إنذارًا كالنكير بمعنى: الإنكار ومنه قوله تعالى: ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾[1].

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾.

﴿الذي له﴾ رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح أو نصب عليه.

فإن قُلْتَ: كيف جاز الفصل بين البدل والمبدل منه؟ **قُلْتُ:** ما فصل بينهما بشيء لأنّ المبدل منه صلته نزل، وليكون تعليل له فكأن المبدل منه لم يتمّ إلا به.

فإن قُلْتَ: في الخلق معنى التقدير فما معنى قوله: ﴿وخلق كل شيء فقدّره تقديرًا﴾ كأنه قال: وقدّر كل شيء فقدّره! **قُلْتُ:** المعنى: أنه أحدث كل شيء إحداثًا مراعى فيه التقدير والتسوية، فقدّره وهيأه لما يصلح له مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدّر المسوّى الذي تراه فقدّره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدّرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدّره لأمر ما، ومصلحة مطابقة لما قدّر له غير متجاف عنه أو سمى إحداث الله خلقًا لأنه لا يحدث شيئًا لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت فإذا قيل: خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكأنه قيل: و وجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجده متفاوتًا وقيل: فجعل له غاية ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء إلى أمد معلوم.

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾.

الخلق بمعنى الافتعال كما في قوله تعالى: ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانًا وتخلقون إفكًا﴾[2] والمعنى: أنهم آثروا على عبادة الله سبحانه عبادة آلهة لا عجز أبين من عجزهم لا يقدرون على شيء من أفعال الله ولا من أفعال العباد حيث لا يفتعلون شيئًا وهم يفتعلون لأن عبدتهم يصنعونهم بالنحت والتصوير ﴿ولا يملكون﴾ أي: لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها أو جلب نفع إليها وهم يستطيعون، وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع التي يقدر عليها العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التي لا يقدر عليها إلا الله أعجز.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾.

﴿قوم آخرون﴾ قيل: هم اليهود وقيل: عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وأبو فكيهة الرومي قال: نلك النضر بن الحرث بن عبد الدار، جاء وأتى يستعملان في معنى: فعل فيعديان تعديته وقد يكون على معنى: وردوا ظلمًا كما تقول: جئت المكان ويجوز أن يحنف الجار ويوصل الفعل، وظلمهم أن جعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلامًا عربيًا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب، والزور أن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه.

وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾.

﴿أساطير الأوّلين﴾ ما سطره المتقدمون من نحو أحاديث رستم واسفنديار جمع أسطار، أو أسطورة كأحدوثة ﴿اكتتبها﴾ كتبها لنفسه وأخذها كما تقول: استكب الماء واصطبه إذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه، وقرئ اكتتبها على البناء للمفعول والمعنى: اكتتبها كاتب له لأنه كان أميًّا لا يكتب بيده وذلك من تمام إعجازه، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب كقوله: واختار موسى قومه، ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه فانقلب مرفوعًا مستترًا بعد أن كان بارزًا منصوبًا، وبقي ضمير الأساطير على حاله فصار اكتتبها كما ترى.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: اكتتبها ﴿فهي تملى عليه﴾، وإنما يقال: أمليت عليه فهو يكتتبها! **قُلْتُ:** فيه وجهان أحدهما أراد اكتتابها، أو طلبه فهي تملى عليه أو كتبت له وهو أميّ فهي تملى عليه أي: تلقي عليه من كتابه يتحفظها لأنّ صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب، وعن الحسن أنه قول الله سبحانه: يكذبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار ووجهه أن يكون نحو قوله:

أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورث ذودًا شصائصًا نبلا

وحق الحسن أن يقف على الأولين ﴿بكرة وأصيلا﴾.

قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾.

أي: دائمًا أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس، وحين يأوون إلى مساكنهم أي: يعلم كل سر خفي في السموات والأرض ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله ﷺ مع علمكم أنّ ما تقولونه باطل وزور، وكذلك باطن أمر رسول الله ﷺ، وبراءته مما تبهتونه به وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه.

فإن قُلْتَ: كيف طابق قوله: ﴿إنه كان غفورًا رحيمًا﴾ هذا المعنى؟ **قُلْتُ:** لما كان ما تقدّمه في معنى: الوعيد عقبه

(1) سورة القمر، الآيات: 16، 18، 21، 30.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 17.

بما يدل على القدرة عليه لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة، أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبًّا، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل.

وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾.

وقعت اللام في المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربي، وخط المصحف سنة لا تغير وفي هذا استهانة وتصغير لشأنه، وتسميته بالرسول سخرية منهم، وظن كأنهم قالوا: ما لهذا الزاعم أنه رسول، ونحوه قول: فرعون إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون أي: إن صحّ أنه رسول الله، فما باله حاله مثل حالنا ﴿يأكل الطعام﴾ كما نأكل ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكًا مستغنيًا عن الأكل والتعيش؛ ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكًا إلى اقتراح أن يكون إنسانًا معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف.

أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾.

ثم نزلوا أيضًا فقالوا: وإن لم يكن مرفودًا بملك فليكن مرفودًا بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلاً له بستان يأكل منه ويرتزق كما الدهاقين والمياسير أو يأكلون هم من ذلك البستان، فينتفعون به في دنياهم ومعاشهم، وأراد بالظالمين إياهم بأعيانهم وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا: وقرئ فيكون بالرفع أو يكون له جنة بالياء وناكل بالنون.

فإن قُلْتَ: ما وجها الرفع والنصب في فيكون؟ **قُلْتُ:** النصب لأنه جواب لولا بمعنى: هلا وحكمه حكم الاستفهام والرفع على أنه معطوف على أنزل ومحله الرفع ألا تراك تقول لولا ينزل بالرفع، وقد عطف عليه يلقى وتكون مرفوعين ولا يجوز النصب فيهما لأنهما في حكم الواقع بعد لولا ولا يكون إلا مرفوعًا، والقائلون هم كفار قريش: النضر بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم ﴿مسحورًا﴾ سحر فغلب على عقله أو ذا سحر وهو الرئة عنوا أنه بشر لا ملك.

ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾.

﴿ضربوا لك الأمثال﴾ أي: قالوا: فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة من نبوّة مشتركة بين إنسان وملك وإلقاء كنز عليك من السماء، وغير ذلك، فبقوا متحيرين ضلالاً لا يجدون قولاً يستقرون عليه أو فضلوا عن الحق فلا يجدون طريقًا إليه.

تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾.

تكاثر خير ﴿الذي إن شاء﴾ وهب لك في الدنيا ﴿خيرًا﴾ مما قالوا: وهو أن يعجل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور، وقرئ ويجعل بالرفع عطفًا على جعل لأنّ الشرط إذا وقع ماضيًا جاز في جزائه الجزم والرفع كقوله:

وإن أتاه خليل يوم مسئلة ... يقول: لا غائب مالي ولا حرم

ويجوز في ويجعل لك إذا أدغمت أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع جميعًا، وقرئ بالنصب على أنه جواب الشرط بالواو.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾.

﴿بل كذبوا﴾ عطف على ما حكى عنهم يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة ويجوز أن يتصل بما يليه كأنه قال: بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة، السعير النار الشديدة الاستعار وعن الحسن رضي الله عنه أنه اسم من أسماء جهنم.

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾.

﴿رأتهم﴾ من قولهم: دورهم تترا، أي: وتتناظر ومن قوله ﷺ: لا ترا أي: نارهما كأن بعضها يرى بعضًا[1] على سبيل المجاز[2]، والمعنى: إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر، ويجوز أن يراد إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبًا على الكفار، وشهوة للانتقام منهم الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض، وجاء في الأحاديث أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا.

وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾.

ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضييق والإرهاق،

---

(1) تقدم في المائدة، الحديث: 457.

(2) قال أحمد: لا حاجة إلى حمله على المجاز، فإن رؤية جهنم جائزة، وقدرة الله تعالى صالحة، وقد تظافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز، وعلى أن الله تعالى يخلق لها إدراكاً حسياً وعقلياً، ألا ترى إلى قوله: ﴿سمعوا لها تغيظاً﴾ وإلى محاجتها مع الجنة، وإلى = قولها: هل من مزيد، وإلى اشتكائها إلى ربها، فأذن لها في نفسين إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها إذ لا محوج إليه، ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد لتطوح الذي يسلك ذلك إلى وادي الضلالة والتحيز إلى فرق الفلاسفة، فالحق أنا متعبدون بالظاهر ما لم يمنع مانع والله أعلم.

حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصًا كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع، وقيل: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد، والثبور الهلاك ودعاؤه أن يقال: واثبوراه أي: تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك ﴿لا تدعوا﴾ أي: يقال لهم: ذلك أو هم أحقاء بأن يقال لهم: وإن لم يكن ثمة قول ومعنى:

﴿وادعوا ثبورًا كثيرًا﴾ إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدًا إنما هو ثبور كثير إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم الراجع إلى الموصولين محذوف يعني: وعدها المتقون وما يشاؤنه وإنما قيل: كانت لأنّ ما وعده الله وحده فهو في تحققه كأنه قد كان أو كان مكتوبًا في اللوح قبل أن برأهم بأزمنة متطاولة أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله:

قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾.

﴿كانت لهم جزاء ومصيرًا﴾؟ **قُلْتُ:** هو كقوله: نعم، الثواب وحسنت مرتفقًا فمدح الثواب ومكانه كما قال: بئس الشراب وساءت مرتفقًا فذم العقاب ومكانه لأنّ النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة وإن لا تنغص وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكراهة، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء والضمير في.

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾.

﴿كان﴾ لما يشاؤن والوعد الموعود أي: كان ذلك موعودًا واجبًا على ربك إنجازه حقيقًا أن يسئل، ويطلب لأنه جزاء وأجر مستحق وقيل: قد سأله الناس والملائكة في دعواتهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾.

يحشرهم فيقول: كلاهما بالنون والياء، وقرئ يحشرهم بكسر الشين ﴿وما يعبدون﴾ يريد المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير، وعن الكلبي الأصنام ينطقها الله، ويجوز أن يكون عامًا لهم جميعًا.

فإن قُلْتَ: كيف صحّ استعمال ما في العقلاء؟ **قُلْتُ:** هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم بدليل قولك: إذا رأيت شبحًا من بعيد ما هو فإذا قيل: لك إنسان قلت: حينئذٍ من هو ويدلك قولهم: من لما يعقل أو أريد به الوصف كأنه قيل: ومعبوديهم ألا تراك تقول: إذا أردت السؤال عن صفة زيد ما زيد تعني: أطويل أم قصير أفقيه أم طبيب.

فإن قُلْتَ: ما فائدة أنتم وهم وهلا قيل أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل! **قُلْتُ:** ليس السؤال عن الفعل ووجوده لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وإبلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤول عنه.

فإن قُلْتَ: فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه فما فائدة هذا السؤال؟ **قُلْتُ:** فائدته أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فيبهتوا وينخذلوا وتزيد حسرتهم، ويكون ذلك نوعًا مما يلحقهم من غضب الله وعذابه ويغتبط المؤمنون ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك، وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفًا للمكلفين وفيه كسر بيِّن لقول من يزعم أن الله يضل عباده على الحقيقة حيث يقول للمعبودين من دونه: أأنتم أضللتموهم أم هم ضلوا بأنفسهم فيتبرؤن من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلين ويقولون: بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم، فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون سبب الشكر سبب الكفر ونسيان الذكر وكان ذلك سبب هلاكهم، فإذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعاذوا منه فهم لربهم الغنيّ العدل أشدّ تبرئة وتنزيهًا منه ولقد نزهوه حين أضافوا إليه التفضل بالنعمة والتمتيع بها، وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة فشرحوا الإضلال المجازي الذي أسنده الله إلى ذاته في قوله: ﴿يضل من يشاء﴾[1] ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا: بل أنت أضللتهم[2] والمعنى: أأنتم أوقعتموهم في الضلال

---

(1) سورة فاطر، الآية: 8.

(2) قال أحمد: قد تقدم شرح عقيدة أهل الحق في هذا المعنى، وأن الباعث لهم على اعتقاد كون الضلال من خلق الله تعالى التزامهم للتوحيد المحض، والإيمان الصرف الذي دلّ على صحته بعد الأدلة العقلية. قوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾ والضلال شيء فوجب كونه خالقه هذا من حيث العموم، وأما من حيث الخصوص فأمثال قوله تعالى: ﴿يضلّ من تشاء ويهدي﴾ والأصل الحقيقة، وقول موسى عليه السلام: إن هي إلا فتنتك تضلّ بها من تشاء، وتهدي بها من تشاء، فلو كان الإضلال مستحيلاً على الله تعالى = لما جاز أن يخاطبه الكليم بما لا يجوز، فإذا أوضح ذلك فالملائكة لم يسئلوا في هذه الآية عن المضل لعبادهم حقيقة، فيقال لهم: من أضلّ هؤلاء؟ وإنما قيل لهم: أأنتم أضللتموهم أم هم ضلوا؟ فليس الجواب المطابق العتيد أن يقولوا: أنت أضللتهم، ولو كان معتقدهم أنّ الله هو المضل حقيقة، لكان قولهم في جواب هذا السؤال: بل أنت أضللتهم؟ مجاوزة لمحن السؤال ومحله، وإنما كان هذا الجواب مطابقاً لو قيل لهم: من أضلّ عبادي هؤلاء فقد وضح أن هذا السؤال لا يجاب عنه بما تخيله الزمخشري بتقدير أن يكون معتقدهم أن الله تعالى هو الذي أضلهم، وأن عدولهم عنه =

عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه بأنفسهم، وضل مطاوع أضله وكان القياس ضل عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق، والأصل إلى الطريق وللطريق وقولهم: أضل البعير في معنى: جعله ضالاً أي: ضائعًا لما كان أكثر ذلك بتفريط من صاحبه وقلة احتياط في حفظه قيل: أضله سواء كان منه فعل، أو لم يكن.

قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾.

﴿سبحانك﴾ تعجب منهم قد تعجبوا مما قيل لهم؛ لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون، فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه أو نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون المتقدسون الموسومون بذلك، فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده أو قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، وأن يكون له نبيّ أو ملك أو غيرهما نداً، ثم قالوا: ما كان يصحّ لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحدًا دونك، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك، أو ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما تولاهم الكفار قال الله تعالى: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾[1] يريد الكفرة والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، وقال أبو جعفر المدني: نتخذ على البناء للمفعول وهذا الفعل أعني اتخذ يتعدى إلى مفعول واحد كقولك: اتخذ وليًّا وإلى مفعولين كقولك: اتخذ فلانًا وليًّا قال الله تعالى: أم اتخذوا آلهة من الأرض وقال: واتخذ الله إبراهيم خليلاً، فالقراءة الأولى من المتعدى إلى واحد وهو من أولياء والأصل أن نتخذ أولياء فزيدت من لتأكيد معنى النفي، والثانية من المتعدى إلى مفعولين فالأوّل ما بني له الفعل والثاني من أولياء ومن للتبعيض أي: لا نتخذ بعض أولياء وتنكير أولياء من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام والذكر نكر الله والإيمان به أو القرآن والشرائع، والبور الهلاك يوصف به الواحد والجمع ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ، هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾[2] وقول القائل:

قالوا: خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وقرئ يقولون: بالتاء والياء فمعنى من قرأ بالتاء.

فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾.

فقد كذبوكم بقولكم: إنهم آلهة ومعنى من قرأ بالياء فقد كذبوكم بقولهم: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء.

فإن قُلْتَ: هل يختلف حكم الباء مع التاء والياء؟ **قُلْتُ:** إي: والله هي مع التاء كقوله: بل كذبوا بالحق والجار والمجرور بدل من الضمير كأنه قيل: فقد كذبوا بما تقولون، وهي مع الياء كقولك: كتبت بالقلم، وقرئ يستطيعون بالتاء والياء أيضًا يعني فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم وقيل: الصرف التوبة وقيل: الحيلة من قولهم: إنه ليتصرف أي: يحتال، أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو أن يحتالوا لكم، الخطاب على العموم للمكلفين، والعذاب الكبير لاحق بكل مَن ظلم والكافر ظالم لقوله: إن الشرك لظلم عظيم، والفاسق ظالم لقوله: ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، وقرئ ينقه بالياء وفيه ضمير الله أو ضمير مصدر يظلم.

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾.

الجملة بعد إلا صفة لموصوف محذوف والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحدًا من المرسلين إلا آكلين وماشين وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور أعني من المرسلين ونحوه قوله عز من قائل: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[3] على معنى: وما منا أحد، وقرئ ويمشون على البناء للمفعول أي: تمشيهم حوائجهم، أو الناس ولو قرئ يمشون لكان أوجه لولا الرواية وقيل: هو احتجاج على من قال: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴿فتنة﴾ أي: محنة وابتلاء وهذا تصبير لرسول الله ﷺ على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل، يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض، والمعنى: أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وبمناصبتهم لهم العداوة

= ليس لأنهم لا يعتقدونه، ولكن لأنه لا يطابق، وقد بقي وراء ذلك نظر في أن جوابهم هذا يدل على معتقدهم الموافق لأهل الحق؛ لأنّ أهل الحق يعتقدون أن الله تعالى، وإن خلق لهم الضلالة إلا أن لهم اختياراً فيها وتميزاً لها، ولم يكونوا عليها مقسورين كما هم مقسورون على أفعال كثيرة يخلقها الله فيهم كالحركات الرعشية ونحوها، وقد قدمنا في مواضع أن كل فعل اختياري له نسبتان: إن نظر إلى كونه مخلوقاً، فهو منسوب إلى الله تعالى، وإن نظر إلى كونه اختيارياً للعبد، فهو منسوب إلى العبد، وبذلك قطعت الملائكة في قولهم: بل متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، فنسبوا =

= نسيان الذكر إليهم أي: الانهماك في الشهوات الذي نشأ عنه النيسان؛ لأنهم اختاروه لأنفسهم فصدقت نسبته إليهم، ونسبوا السبب الذي اقتضى نسيانهم، وانهماكهم في الشهوات إلى الله تعالى، وهو استدراجهم ببسط النعم عليهم فبها ضلوا، فلا تنافي بين معتقد أهل الحق وبين مضمون قول الملائكة حينئذٍ، بل هما متواطئان على أمر واحد، والله أعلم.

(1) سورة النساء، الآية: 76.

(2) سورة المائدة، الآية: 19.

(3) سورة الصافات، الآية: 164.

وأقاويلهم الخارجة عن حدّ الإنصاف، وأنواع أذاهم وطلب منهم الصبر الجميل ونحوه ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ وموقع ﴿أتصبرون﴾ بعد ذكر الفتنة موقع أيكم بعد الابتلاء في قوله: ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴿بصيرًا﴾ عالمًا بالصواب فيما يبتلى به وغيره، فلا يضيقن صدرك ولا يستخفنك أقاويلهم فإن في صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين وقيل: هو تسلية له عما عيروه به من الفقر حين قالوا: أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة وأنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء لينظر هل يصبرون وأنها حكمته ومشيئته يغني من يشاء ويفقر من يشاء وقيل: جعلناك فتنة لهم لأنك لو كنت غنيًا صاحب كنوز وجنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا، أو ممزوجة بالدنيا فإنما بعثناك فقيرًا ليكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي وقيل: كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبقتهم يقولون: إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إدلالاً بالسابقة فهو افتتان بعضهم ببعض.

۞ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

أي: لا يأملون لقاءنا بالخير لأنهم كفرة أو لا يخافون لقاءنا بالشر والرجاء في لغة تهامة الخوف وبه فسر قوله تعالى: ﴿لا ترجون لله وقارًا﴾(1) جعلت الصيرورة إلى دار جزائه بمنزلة لقائه لو كان ملقيًا، اقترحوا من الآيات أن ينزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم بأن محمدًا صادق حتى يصدقوه، أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه ولا يخلو إما أن يكونوا عالمين بأن الله لا يرسل الملائكة إلى غير الأنبياء، وأن الله لا يصح أن يرى وإنما علقوا إيمانهم بما لا يكون وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك، وإنما أرادوا التعنت باقتراح آيات سوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم كما فعل قوم موسى حين قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿في أنفسهم﴾؟ **قُلْتُ**: معناه أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال: إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴿وعتو﴾ وتجاوزوا الحدّ في الظلم يقال: عتا علينا فلان، وقد وصف العتو بالكبير فبالغ في إفراطه يعني: أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو، واللام جواب قسم محذوف وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية وفي أسلوبها قول القائل:

وجارة جساس أبأنا بنابها ... كليبا غلت ناب كليب بواؤها

وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب ألا ترى أن المعنى ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم وما أغلى نابا بواؤها كليب.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿يوم يرون﴾ منصوب بأحد شيئين إما بما دلّ عليه ﴿لا بشرى﴾ أي: يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى، أو يعدمونها ويومئذ للتكرير وإما بإضمار اذكر أي: اذكر يوم يرون الملائكة، ثم قال: ﴿لا بشرى يومئذٍ للمجرمين﴾ وقوله: للمجرمين إما ظاهر في موضع ضمير، وإما لأنه عام فقدتنا ولهم بعمومه ﴿حجرًا محجورًا﴾ ذكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو معاذ الله، وقعدك الله، وعمرك الله، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو موتوراً وهجوم نازلة أو نحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة قال سيبويه: ويقول الرجل للرجل: أتفعل كذا وكذا فيقول: حجرا وهي من حجره إذا منعه لأنّ المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه، فلا يلحقه فكان المعنى: أسأل الله أن يمنع ذلك منعًا ويحجره حجرًا ومجيئه على فعل، أو فعل في قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما كان قعدك وعمرك كذلك وأنشدت لبعض الرجاز:

قالت وفيها حيدة وذعر ... عوذ بربي منكم وحجر

فإن قُلْتَ: فإذا قد ثبت أنه من باب المصادر، فما معنى وصفه بمحجور؟ **قُلْتُ**: جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا: ذيل ذائل والذيل الهوان وموت مائت والمعنى في الآية: أنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم، وفزعوا منهم لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدوّ الموتور وشدة النازلة وقيل: هو من قول الملائكة: ومعناه حرامًا محرمًا عليكم الغفران والجنة والبشرى أي: جعل الله ذلك حرامًا عليكم.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

ليس ههنا قدوم ولا ما يشبه القدوم ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف، وقرئ ضيف ومنّ على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه، فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها أثرًا ولا عثيرًا، والهباء ما يخرج من الكوّة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار وفي أمثالهم أقل من الهباء ﴿منثورًا﴾ صفة للهباء شبهه بالهباء في قلته وحقارته عنده وأنه لا ينتفع به، ثم بالمنثور منه لأنك تراه منتظمًا مع الضوء فإذا حركته

(1) سورة نوح، الآية: 13.

الريح رأيته قد تناثر وذهب كل مذهب ونحوه قوله: ﴿كعصف ماكول﴾[1] لم يكف أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفًا بالآكال ولا أن شبه عملهم بالهباء حتى جعله متناثرًا، أو مفعول ثالث لجعلناه أي: فجعلناه جامعًا لحقارة الهباء والتناثر كقوله: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾[2] أي: جامعين للمسخ والخسء ولام الهباء واو بدليل الهبوة.

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾.

المستقرّ: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرّين يتجالسون ويتحادثون، والمقيل: المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهنّ وملامستهنّ كما أنّ المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب، وروي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيَقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وفي معناه قوله تعالى: ﴿إنّ أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾[3] قيل: في تفسير الشغل افتضاض الأبكار ولا نوم في الجنة وإنما سمى مكان دعتهم واسترواحهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه وفي لفظ الأحسن رمز إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الوجوه، وملاحة الصور إلى غير ذلك من التحاسين والزين.

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾.

وقرئ ﴿تشقق﴾ والأصل تتشقق فحذف بعضهم التاء وغيره أدغمها ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء كما تقول: شق السنام بالشفرة وانشق بها ونظيره قوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾[4].

فإن قُلْتَ: أيُّ فرق بين قولك: انشقت الأرض بالنبات وانشقت عن النبات؟ **قُلْتُ:** معنى انشقت به: أنّ الله شقها بطلوعه فانشقت به ومعنى انشقت عنه: أنّ التربة ارتفعت عنه عند طلوعه، والمعنى: أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد، وروي تنشق سماء سماء وتنزل الملائكة إلى الأرض وقيل: هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم، وفي معناه قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾[5]، وقرئ وننزل الملائكة وننزل الملائكة ونزل الملائكة، ونزلت الملائكة، وأنزل الملائكة، ونزل الملائكة، ونزل الملائكة على حذف النون الذي هو فاء الفعل من ننزل قراءة أهل مكة.

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾.

﴿الحق﴾ الثابت لأنّ كل ملك يزول يومئذٍ ويبطل ولا يبقى إلا ملكه، عض اليدين والأنامل والسقوط في اليد وأكل البنان وحرق الأسنان والأرم وقرعها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفها، فينكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه، وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس وكان يكثر مجالسة رسول الله ﷺ، وقيل: اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله ﷺ فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين، ففعل وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال: صبأت يا عقبة قال لا، ولكن آلى أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له والشهادة ليست في نفسي، فقال: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدًا فلم تطأ قفاه وتبزق في وجهه وتلطم عينه، فوجده ساجدًا في دار الندوة ففعل ذلك فقال النبي ﷺ: لا ألقاك خارجًا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل يوم بدر أمر عليًّا رضي الله عنه بقتله وقيل: قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الأنصاري، وقال: يا محمد إلي من الصبية قال: إلى النار وطعن رسول الله ﷺ أبياً بأحد فرجع إلى مكة فمات[6].

وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾.

واللام في ﴿الظالم﴾ يجوز أن تكون للعهد يراد به عقبة خاصة، ويجوز أن تكون للجنس فيتناول عقبة وغيره، تمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقًا واحدًا وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والهوى أو أراد أني كنت ضالاً لم يكن لي سبيل قط، فليتني حصلت بنفسي في صحبة الرسول سبيلاً.

يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾.

وقرئ: ﴿يا ويلتي﴾ بالياء وهو الأصل لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالى: فهذا أوانك وإنما قلبت الياء ألفًا كما في صحارى ومدارى، فلان كناية عن الإعلام كما أن الهن كناية عن الأجناس فإن أريد بالظالم عقبة فالمعنى ليتني لم أتخذ أبياً خليلاً فكنى عن اسمه وإن أريد به الجنس، فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة فجعله كناية عنه.

لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾.

﴿عن الذكر﴾ عن ذكر الله أو القرآن، أو موعظة الرسول ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق وعزمه على الإسلام،

(1) سورة الفيل، الآية: 5.
(2) سورة البقرة، الآية: 65.
(3) سورة يس، الآية: 55 ـ 56.
(4) سورة المزمل، الآية: 18.
(5) سورة البقرة، الآية: 210.
(6) ذكره الواحدي في أسباب النزول، ص: 189.

والشيطان إشارة إلى خليله سماه شيطانًا لأنه أضله كما يضل الشيطان، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة أو أراد إبليس وأنه هو الذي حمله على مخالة المضل ومخالفة الرسول، ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجنّ والإنس، ويحتمل أن يكون وكان الشيطان حكاية كلام الظالم وأن يكون كلام الله، واتخذت يقرأ على الإدغام والإظهار، والإدغام أكثر.

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾.

الرسول محمد ﷺ وقومه قريش حكى الله عنه شكواه قومه إليه وفي هذه الحكاية تعظيم للشكاية، وتخويف لقومه لأنّ الأنبياء كانوا إذا التجؤا إليه وشكوا إليه قومهم حلّ بهم العذاب ولم ينظروا.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾.

ثم أقبل عليه مسليًا ومواسيًا وواعدًا النصرة عليهم فقال: ﴿وكذلك﴾ كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفاك بي هاديًا إلى طريق قهرهم والانتصار منهم وناصرًا لك عليهم، مهجورًا تركوه وصدّوا عنه وعن الإيمان به وعن النبي ﷺ من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفًا لم يتعاهده، ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقًا به يقول: يا رب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجورًا اقض بيني وبينه[1]، وقيل هو من هجر إذا هذى أي: جعلوه مهجورًا فيه فحذف الجار وهو على وجهين أحدهما زعمهم أنه هذيان وباطل وأساطير الأوّلين، والثاني أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه كقوله تعالى: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾[2] ويجوز أن يكون المهجور بمعنى: الهجر كالمجلود والمعقول والمعنى اتخذوه هجرًا، والعدوّ يجوز أن يكون واحدًا وجمعًا كقوله: ﴿فإنهم عدوّ لي﴾[3] وقيل: المعنى وقال الرسول يوم القيامة.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾.

﴿نزل﴾ ههنا بمعنى أنزل لا غير كخبر بمعنى أخبر وإلا كان متدافعًا وهذا أيضًا من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه قالوا: هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة وماله أنزل على التفاريق والقائلون قريش وقيل: اليهود وهذا فضول من القول: ومماراة بما لا طائل تحته لأنّ أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقًا، وقوله: ﴿كذلك﴾ جواب لهم أي: كذلك أنزل مفرّقًا، والحكمة فيه أن نقوّي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه لأنّ المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئًا بعد شيء وجزءًا عقيب جزء ولو ألقي عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا بحفظه، والرسول ﷺ فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام حيث كان أمّيًا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بدّ من التلقن والتحفظ فأنزل عليه منجمًا في عشرين سنة وقيل: في ثلاث وعشرين وأيضًا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين، ولأنّ بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرّقًا.

فإن قُلْتَ: ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدّمه والذي تقدّم هو إنزاله جملة واحدة، فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرّقًا؟ **قُلْتُ**: لأنّ قولهم: لولا أنزل عليه جملة معناه لم أنزل مفرّقًا والدليل على فساد هذا الاعتراض أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، وتحدّوا بسورة واحدة من أصغر السور فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة، وفزعوا إلى المحاربة، ثم قالوا: هلا نزل جملة واحدة كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته ﴿ورتلناه﴾ معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك كأنه قال: كذلك فرقناه ورتلناه، ومعنى ترتيله: أن قدّره آية بعد آية ووقفة عقيب وقفة، ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله: ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾[4] أي: اقرأه بترسل وتثبت ومنه حديث عائشة رضي الله عنها في صفة قراءته ﷺ لا كسرنكم هذا لو أراد السامع أن يعدّ حروفه يعدّها[5]، وأصله الترتيل في الأسنان وهو تفليجها يقال: ثغر رتل ومرتل ويشبه بنور الأقحوان في تفليجه، وقيل: هو أنزله مع كونه متفرّقًا على تمكث وتمهل في مدّة متباعدة وهي عشرون سنة ولم يفرقه في مدّة متقاربة.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾.

﴿ولا يأتونك﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كأنه مثل في البطلان إلا أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ومؤدّى من سؤالهم، ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل: معناه كذا وكذا أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون: هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقى إليك كنز أو تكون لك جنة، أو ينزل عليك القرآن جملة إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره.

(2) سورة فصلت، الآية: 26.

(3) سورة الشعراء، الآية: 77.

(4) سورة المزمل، الآية: 4.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، الحديث: 3568. ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبو هريرة رضي الله عنه، الحديث: (160ــ 2493)، والترمذي في كتاب: المناقب، باب: في كلام النبي ﷺ، (الحديث: 3639).

لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه، وما هو أحسن تكشيفًا لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعني: أنّ تنزيله مفرّقًا وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها أدخل في الإعجاز، وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة ويقال لهم: جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه كأنه قيل لهم: إنّ حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضللون سبيله وتحقرون مكانه ومنزلته.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أنّ مكانكم شر من مكانه، وسبيلكم أضل من سبيله وفي طريقته قوله قل: ﴿هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله مَن لعنه الله وغضب عليه﴾ الآية، ويجوز أن يراد بالمكان الشرف والمنزلة وأن يراد الدار والمسكن كقوله: ﴿أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا﴾[1] وصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي، وعن النبي ﷺ يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث: ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلاً[2].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾.

الوزارة تنافي النبوّة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضًا، والمعنى: فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم كقوله: ﴿اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾[3] أي: فضرب فانفلق أراد اختصار القصة فذكر حاشيتها أوّلها وآخرها لأنهما المقصود من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثه الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم وعن عليّ رضي الله عنه، فدمّرتهم وعنه فدمّراهم، وقرئ: ﴿فدمّرانهم﴾ على التأكيد بالنون الثقيلة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.

كانهم كذبوا نوحًا ومن قبله من الرسل صريحًا وكان تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع، ولم يروا بعثة الرسل أصلاً كالبراهمة ﴿وجعلناهم﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿للظالمين﴾ إمّا أن يعني بهم: قوم نوح وأصله واعتدنا لهم إلا أنه قصد تظليمهم، فأظهر وإمّا أن يتناولهم بعمومه.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾.

عطف عادًا على هم في جعلناهم أو على الظالمين لأنّ المعنى: وعدنا الظالمين، وقرئ وثمود على تأويله القبيلة وأما المنصرف فعلى تاويل الحي أو لأنه اسم الأب الأكبر قيل: في أصحاب الرس كانوا قومًا من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش فبعث الله إليهم شعيبًا فدعاهم إلى الإسلام، فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه فبينا هم حول الرس، وهو البئر غير المطوية عن أبي عبيدة، انهارت بهم، فخسف بهم وبديارهم وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم، فهلكوا وهم بقية ثمود قوم صالح وقيل هم: أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له: فتح وهي تنقض على صبيانهم، فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة، ثم أنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا وقيل هم: أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود وقيل: الرس بإنطاكية قتلوا فيها حبيبًا النجار وقيل: كذبوا نبيهم ورسوه في بئر أي: دسوه فيها ﴿بين ذلك﴾ أي: بين ذلك المذكور وقد ينكر الذاكر أشياء مختلفة، ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادًا متكاثرة، ثم يقول: فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب، أو المعدود.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ضربنا له الأمثال﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأوّلين ووصفنا لهم ما أجروا إليه من تكذيب الأنبياء، وجرى عليهم من عذاب الله وتدميره، والتتبير: التفتيت والتكسير ومنه التبر وهو كسار الذهب والفضة والزجاج، وكلا الأوّل منصوب بما دل عليه ضربنا له الأمثال وهو أنذرنا، وحذرنا والثاني بتبرنا لأنه فارغ له.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۖ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط وكانت خمسًا أهلك الله تعالى أربعًا بأهلها وبقيت واحدة، ومطر السوء الحجارة يعني: أن قريشًا مرّوا مرارًا كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ﴿أفلم يكونوا﴾ في مرار مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله ويتفكرون ﴿بل كانوا﴾ قومًا كفرة بالبعث لا يتوقعون ﴿نشورًا﴾ وعاقبة فوضع الرجاء موضع التوقع لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن، فمن ثم لم ينظروا ولم يتفكروا ومرّوا بها كما مرّت ركابهم أو لا يأمّلون نشورًا كما يأمّله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم أو لا يخافون على اللغة التهامية إنّ الأولى نافية

---

(1) سورة مريم، الآية: 73.

(2) 1 ـ أخرجه أحمد في المسند، 5/164.

2 ـ أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة، والرقائق والورع، = باب: ما جاء في شأن المشي، (الحديث: 2424).

(3) سورة الشعراء، الآية: 63.

والثانية مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينهما.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾.

واتخذه هزوًا في معنى استهزأ به والأصل اتخذه موضع هزؤًا ومهزوءًا به ﴿أهذا﴾ محكي بعد القول المضمر وهذا استصغار ﴿وبعث الله رسولاً﴾، وإخراجه في معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء ولو لم يستهزؤا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادّعى أنه مبعوث من عند الله رسولاً.

إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾.

وقولهم: ﴿إن كاد ليضلنا﴾ دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم و﴿لولا﴾ في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى، لا من حيث الصنعة مجرى التقيد للحكم المطلق ﴿وسوف يعلمون﴾ وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدّة الإمهال ولا بدّ للوعيد أن يلحقهم فلا يغرّنهم التأخير وقوله: ﴿من أضلّ سبيلاً﴾ كالجواب عن قولهم: إن كاد ليضلنا لأنه نسبة لرسول الله ﷺ إلى الضلال من حيث لا يضلّ غيره إلا من هو ضال في نفسه ويروى أنه من قول أبي جهل لعنه الله.

أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾.

من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتي ويذر لا يتبصر دليل ولا يصغي إلى برهان، فهو عابد هواه وجاعله إلهه فيقول لرسوله: هذا الذي لا يرى معبودًا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه، وتجبره على الإسلام وتقول لا بدّ أن تسلم شئت أو أبيت ولا إكراه في الدين وهذا كقوله: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾(1) ﴿لست عليهم بمصيطر﴾(2) ويروى أنّ الرجل منهم كان يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر ومنهم الحرث بن قيس السهمي أم هذه منقطعة معناه: بل أتحسب كأن هذه المذمة أشدّ من التي تقدّمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول، لأنّهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنًا ولا إلى تدبره عقلاً ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال، ثم أرجح ضلالة منها.

فإن قُلْتَ: لم أخر هواه والأصل قولك: اتخذ الهوى إلهًا! **قُلْتُ:** ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأوّل للعناية كما تقول: علمت منطلقًا زيدًا لفضل عنايتك بالمنطلق(3).

فإن قُلْتَ: ما معنى ذكر الأكثر؟ **قُلْتُ:** كان فيهم من لم يصده عن الإسلام الأداء واحد وهو حب الرياسة وكفى به داء عضالاً.

فإن قُلْتَ: كيف جعلوا أضل من الأنعام؟ **قُلْتُ:** لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها، وتتعهدها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾.

﴿ألم ترى إلى ربك﴾ ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ومعنى مدّ الظل: أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس ﴿ولو شاء لجعله ساكنًا﴾ أي: لاصقًا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة غير منبسط، فلم ينتفع به أحد سمى انبساط الظل وامتداده تحركًا منه وعدم ذلك سكونًا ومعنى كون الشمس دليلاً أنّ الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتًا في مكان زائلاً ومتسعًا ومتقلصًا، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك.

ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾.

وقبضه إليه أنه ينسخه يضح الشمس ﴿يسيرًا﴾ أي: على مهل وفي هذا القبض اليسير شيئًا بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت إكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعًا.

فإن قُلْتَ: ثم في هذين الموضعين كيف موقعها؟ **قُلْتُ:** موقعها للبيان تفاضل الأمور الثلاثة كان الثاني أعظم من الأوّل، والثالث أعظم منهما تشبيهًا لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت ووجه آخر وهو أنه مدّ الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة، ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض فيناً ناما في أديمه جوب لعدم النير ولو شاء لجعله ساكنًا مستقرًا على تلك الحالة، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أي:

---

(1) سورة قٓ، الآية: 45.

(2) سورة الغاشية، الآية: 22.

(3) قال أحمد: وفيه نكتة حسنة، وهي إفادة الحصر، فإن الكلام قبل =

= دخول أرأيت مبتدأ وخبر المبتدأ: هواه، والخبر: إلهه، وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر، فكأنه قال: أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه، فهو أبلغ في ذمه وتوبيخه والله أعلم.

سلطها عليه ونصبها دليلاً متبوعًا له كما يتبع الدليل في الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص، ثم نسخه بها فقبضه قبضًا سهلاً يسيرًا غير عسير ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تبقى الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله: ﴿قبضناه إلينا﴾ يدل عليه وكذلك قوله: ﴿يسيرًا﴾ كما قال: ذلك حشر علينا يسير.

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾.

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر والسبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة وهذا كقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾[1].

فإن قُلْتَ: هلا فسرته بالراحة! **قُلْتُ:** النشور في مقابلته يأباه أباء العيوف الورد وهو مرنق وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه لأنّ الاحتجاب يستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة أيّ عبرة فيها لمن اعتبر وعن لقمان أنه قال لابنه: يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾.

قرئ الريح والرياح نشرًا إحياء ونشرًا جمع نشور وهي المحيية ونشرًا تخفيف نشر وبشرًا تخفيف بشر جمع بشور وبشرى و﴿بين يدي رحمته﴾ استعارة مليحة أي: قدّام المطر ﴿طهورًا﴾ بليغًا في طهارته وعن أحمد بن يحيى هو ما كان طاهرًا في نفسه مطهرًا لغيره، فإن كان ما قاله شرحًا لبلاغته في الطهارة كان سديدًا ويعضده قوله تعالى: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾، وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء، والطهور على وجهين في العربية صفة واسم غير صفة فالصفة قولك: ماء طهور كقولك: طاهر والاسم قولك: لما يتطهر به طهور كالوضوء، والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار وقولهم: تطهرت طهورًا حسنًا كقولك: وضوأ حسنًا ذكره سيبويه ومنه قوله ﷺ: لا صلاة إلا بطهور[2] أي: طهارة.

فإن قُلْتَ: ما الذي يزيل عن الماء اسم الطهور؟ **قُلْتُ:** تيقن مخالطة النجاسة أو غلبتها على الظنّ تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير، أو استعماله في البدن لأداء عبادة عند أبي حنيفة وعند مالك بن أنس رضي الله عنهما ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور.

فإن قُلْتَ: فما تقول في قوله ﷺ: حين سئل عن بئر بضاعة فقال: الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه[3]! **قُلْتُ:** قال الواقدي: كان بئر بضاعة طريقًا للماء إلى البساتين.

لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾.

وإنما قال: ﴿ميتًا﴾ لأنّ البلدة في معنى البلد في قوله: فسقناه إلى بلد ميت وأنه غير جار على الفعل كفعول ومفعال ومفعيل، وقرئ نسقيه بالفتح وسقى وأسقى لغتان وقيل: أسقاه جعل له سقيًا، الأناسي جمع إنسي أو إنسان ونحوه ظرابي في ظربان على قلب النون ياء والأصل أناسين وظرابين، وقرئ بالتخفيف بحذف باء أفاعيل كقولك: أناعم في أناعيم.

فإن قُلْتَ: إنزال الماء موصوفًا بالطهارة وتعليله بالإحياء والسقي يؤذن بأن الطهارة شرط في صحة ذلك كما تقول: حملني الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش! **قُلْتُ:** لما كان سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكرامًا لهم وتتميمًا للمنة عليهم وبيانًا أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروها في بواطنهم ثم في ظواهرهم وأن يربؤا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات كلها كما ربأ بهم ربهم.

فإن قُلْتَ: لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟ **قُلْتُ:** لأنّ الطير والوحش تبعد في طلب الماء، فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام ولأنها قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام بسقيهم.

فإن قُلْتَ: فما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة؟ **قُلْتُ:** معنى ذلك: أن عليه الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء فيهم غنية عن سقى السماء وأعقابهم وهم كثير منهم لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله: ﴿لنحيي به بلدة ميتًا﴾ يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء.

فإن قُلْتَ: لم قدم أحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟ **قُلْتُ:** لأنّ حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 60.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في لا تقبل صلاة بغير طهور، (الحديث: 1)، ومسلم عن ابن عمر في كتاب: الطهارة، باب: وجوب الطهارة للصلاة الحديث: (224).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في بئر بضاعة، = (الحديث: 66) والترمذي في كتاب: الطهارة، باب: أن الماء لا ينجسه شيء، (الحديث: 66)، والنسائي في كتاب: المياه، باب: ذكر بئر بضاعة، (الحديث: 326)، وابن ماجه في كتاب: الطهارة، باب: الحياض، (الحديث: 519).

ومواشيهم لم يعدموا أسقياهم.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾.

يريد ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل عليهم السلام، وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه، ويشكروا **﴿فأبى﴾** أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها، وقيل: صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وجود ورذاذ وديمة ورهام، فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله ورحمته وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما من عام أقل مطرًا من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء[1] وتلا هذه الآية وروي أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لأنه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد، وينتزع من ههنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والأناسي كأنه قال لنحيي به بعض البلاد الميتة ونسقيه بعض الأنعام والأناسي، وذلك البعض كثير.

فإن قُلْتَ: هل يكفر من ينسب الأمطار إلى الأنواء؟ **قُلْتُ:** إن كان لا يراها إلا من الأنواء ويجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله فهو كافر وإن كان يرى إن الله خالقها، وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها لم يكفر.

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾.

يقول لرسوله ﷺ: **﴿ولو شئنا﴾** لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى، و**﴿لبعثنا في كل قرية﴾** نبيًا ينذرها وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك به وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالتشديد والتصبر.

فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾.

﴿فلا تطع الكافرين﴾ فيما يريدونك عليه وإنما أراد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين، وتحريكهم والضمير للقرآن أو لترك الطاعة الذي يدل عليه فلا تطع والمراد أن الكفار يجدون ويجتهدون في توهين أمرك، فقابلهم من جدك واجتهادك وعضك على نواجذك بما تغلبهم به، وتعلوهم وجعله جهادًا كبيرًا لما يحتمل فيه من المشاق العظام ويجوز أن يرجع الضمير في به إلى ما دلّ عليه، ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا من كونه نذير كافة القرى لأنه لو بعث في كل قرية نذيرًا لوجبت على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله ﷺ تلك المجاهدات كلها، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له: **﴿وجاهدهم﴾** بسبب كونك نذير كافة القرى **﴿جهادًا كبيرًا﴾** جامعًا لكل مجاهدة.

۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾.

سمى الماءين الكثيرين الواسعين بحرين والفرات البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة والأجاج نقيضه، ومرجعهما خلاهما متجاورين متلاصقين وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج وهذا من عظيم اقتداره وفي كلام بعضهم، وبحران أحدهما مع الآخر ممزوج وماء العذب منهما بالأجاج ممزوج **﴿برزخًا﴾** حائلاً من قدرته كقوله تعالى: **﴿بغير عمد ترونها﴾** يريد بغير عمد مرئية وهو قدرته، وقرئ: **﴿ملح﴾** على فعل وقيل: كأنه حذف من مالح تخفيفًا كما قال: وصليانًا بردًا يريد باردًا.

فإن قُلْتَ: ﴿وحجرًا محجورًا﴾ ما معناه؟ **قُلْتُ:** هي الكلمة التي يقولها: المتعوذ وقد فسرناها وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز كأن كل واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له: حجرًا محجورًا كما قال: لا يبغيان أي: لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة، فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ ههنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾.

أراد فقسم البشر قسمين ذوي نسب أي ذكورًا ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أي: إناثًا يصاهر بهن ونحوه قوله تعالى: **﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾**[2] **﴿وكان ربك قديرًا﴾** حيث خلق من النطفة الواحدة بشرًا نوعين ذكرًا وأنثى.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾.

الظهير والمظاهر كالعوين والمعاون وفعيل بمعنى: مفاعل غير عزيز، والمعنى: أنّ الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك. روي أنها نزلت في أبي جهل، ويجوز أن يريد بالظهير الجماعة كقوله: **﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾**[3] كما جاء الصديق والخليط يريد بالكافر الجنس وأنّ بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله، وقيل: معناه وكان الذي يفعل هذا الفعل وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضرّ على ربه هينًا مهينًا من قولهم: ظهرت به إذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت إليه وهذا نحو قوله: **﴿أولئك لا خلاق لهم في**

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك، 2/403.
(2) سورة القيامة، الآية: 39.
(3) سورة التحريم، الآية: 4.

الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم﴾[1].

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾.

مثال ﴿إلا من شاء﴾ والمراد إلا فعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول: ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك ثوابًا على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فأفاد فائدتين إحداهما قلع شهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثوابًا فإني أطلب الثواب والثانية إظهار الشفقة البالغة وأنك إن حفظت مالك أعتد بحفظك ثوابًا ورضي به كما يرضي المثاب بالثواب، ولعمري أنّ رسول الله ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه، ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة وقيل: المراد التقرب بالصدقة والنفقة في سبيل الله.

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾.

أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء شرورهم مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء، وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميده وعرفه أن الحيّ الذي لا يموت حقيق بأن يتوكل عليه وحده، ولا يتكل عليه غيره من الأحياء الذين يموتون، وعن بعض السلف أنه قرأها فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شيء آمنوا أم كفروا، وأنه خبير بأعمالهم كاف في جزاء أعمالهم.

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۛ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾.

﴿في ستة أيام﴾ يعني: في مدّة مقدارها هذه المدّة لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل، وقيل: ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة والظاهر أنها من أيام الدنيا، وعن مجاهد أوّلها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ووجهه أن يسمي الله لملائكته تلك الأيام المقدّرة بهذه الأسماء، فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه جرت التسمية على هذه الأيام وأما الداعي إلى هذا العدد أعني الستة دون سائر الأعداد فلا نشك أنه داعي حكمة لعلمنا أنه لا يقدر تقديرًا إلا بداعي حكمة وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلا معرفته، ومن ذلك تقدير لملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر وحملة العرش ثمانية والشهور اثني عشر والسموات سبعًا والأرض كذلك والصلوات خمسًا وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك والإقرار بدواعي الحكمة في جميع أفعاله وبأنّ ما قدّره حق وصواب هو الإيمان، وقد نص عليه في قوله: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانًا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾[2]، ثم قال: وما يعلم جنود ربك إلا هو وهو الجواب أيضًا في إن لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنهما إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليمًا لخلقه الرفق والتثبت وقيل: اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيدًا للمسلمين، الذي خلق مبتدأ و﴿الرحمٰن﴾ خبره أو صفة للحي والرحمن خبر مبتدأ محذوف، أو بدل عن المستتر في استوى وقرئ الرحمن بالجرّ صفة للحي، وقرئ فسل والباء في به صلة سل كقوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾[3] كما تكون عن صلته في نحو قوله: ﴿ثم لتسألنّ يومئذٍ عن النعيم﴾[4] فسأل به كقوله: اهتمّ به واعتنى به واشتغل به وسأل عنه كقولك: بحث عنه وفتش عنه ونقر عنه أو صلة خبير أو تجعل خبيرًا مفعول سل يريد، فسل عنه رجلاً عارفًا يخبرك برحمته أو فسل رجلاً خبيرًا به وبرحمته أو فسل بسؤاله خبيرًا كقولك: رأيت به أسدًا أي: برؤيته، والمعنى: إن سألته وجدته خبيرًا أو تجعله حالاً عن الهاء تريد فسل عنه عالمًا بكل شيء، وقيل: الرحمن اسم من أسماء الله مذكور في الكتب المتقدّمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل: فسل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى يعرف من ينكره، ومن ثمة كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة يعنون مسيلمة وكان يقال له: رحمن اليمامة ﴿وما الرحمٰن﴾ يجوز أن يكون سؤالاً عن المسمى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول بما ويجوز أن يكون سؤالاً عن معناه لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم كما استعمل الرحيم، والرحوم، والراحم، أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى.

﴿لما تأمرنا﴾ أي: للذي تأمّرناه بمعنى تأمرنا سجوده على قوله: أمرتك الخير، أو لأمرك لنا، وقرئ بالياء كأنّ بعضهم قال لبعض: أنسجد لما يأمرنا محمد ﷺ أو يأمرنا المسمى بالرحمن، ولا نعرف ما هو وفي ﴿زادهم﴾ ضمير اسجدوا للرحمن لأنه هو المقول.

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾.

البروج منازل الكواكب السبعة السيارة: الحمل والثور

(1) سورة آل عمران، الآية: 77.
(2) سورة المدثر، الآية: 31.
(3) سورة المعارج، الآية: 1.
(4) سورة التكاثر، الآية: 8.

والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت سميت بالبروج التي هي القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البرج من التبرج لظهوره والسراج الشمس كقوله تعالى: ﴿وجعل الشمس سراجًا﴾[1] وقرئ مسرجًا وهي الشمس والكواكب الكبار معها، وقرأ الحسن والأعمش وقمرًا منيرًا وهي جمع ليلة قمراء كأنه قال: وذا قمرًا منيرًا لأن الليالي تكون قمرًا بالقمر، فأضافه إليها ونظيره في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه قول حسان:

بردى يصفق بالرحيق السلسل

يريد ماء بردى ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى: القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

الخلفة من خلف كالركبة من ركب وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كلّ واحد منهما الآخر، والمعنى: جعلهما ذوي خلفة أي: ذوي عقبة أي: يعقب هذا ذاك وذاك هذا ويقال: الليل والنهار يختلفان كما يقال: يعتقبان ومنه قوله: واختلاف الليل والنهار ويقال: بفلان خلفة واختلاف إذا اختلف كثيرًا إلى متبرّزه، وقرئ يذكر وينكر وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه يتذكر، والمعنى: لينظر في اختلافهما الناظر فيعلم أن لا بدّ لانتقالهما من حال إلى حال وتغيرهما من ناقل، ومغير ويستدل بذلك على عظم قدرته ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال عز وعلا: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾[2] أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته في أحدهما وردّه من العبادة قام به في الآخر وعن الحسن رضي الله عنه من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعتب، ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وعباد الرحمٰن﴾ مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه قيل: وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة، ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون وأضافهم إلى الرحمن تخصيصًا وتفضيلاً، وقرئ وعباد الرحمن، وقرئ يمشون ﴿هونا﴾ حال أو صفة للمشي بمعنى: هينين أو مشيًا هينًا إلا أنّ في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحبب حبيبك هونًا ما وقوله المؤمنون هينون لينون والمثل: إذا عزّ أخوك فهن[3] ومعناه إذا عاسر فياسر والمعنى: أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم إشرًا وبطرًا، ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق ولقوله: ويمشون في الأسواق ﴿سلامًا﴾ تسلمًا منكم لا نجاهلكم، ومتاركة لا خير بيننا ولا شر أي يتسلم منكم تسلمًا فأقيم السلام مقام التسلم وقيل قالوا: سدادًا من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم والمراد بالجهل السفه وقلة الأدب وسوء الرعة من قوله:

ألا لا يجهلنْ أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وعن أبي العالية نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك لأنّ الإغضاء عن السفهاء، وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة وأسلم للعرض والورع.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾.

البيتوتة خلاف الظلول، وهو أن يدركك الليل نمت أو لم تنم وقالوا: من قرأ شيئًا من القرآن في صلاته وإن قلّ فقد بات ساجدًا وقائمًا وقيل: هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو بأكثره يقال: فلان يظل صائمًا ويبيت قائمًا.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿غرامًا﴾ هلاكًا وخسرانًا ملحًا لازمًا قال:

يوم النسار ويوم الجفا ركانا عذابًا وكانا غرامًا

وقال:

إن يعاقب يكن غرامًا وإن يعـ ـط جزيلاً فإنه لا يبالي

ومنه الغريم لإلحاحه ولزامه، وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذانًا بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم كقوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾[4].

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ساءت﴾ في حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرًا والمخصوص بالذمّ محذوف معناه ساءت مستقرًا ومقامًا هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبرًا لها، ويجوز أن يكون ساءت بمعنى: أحزنت وفيها ضمير اسم إن ومستقر حال أو تمييز والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين ومترادفين وأن يكونا من كلام الله

---

(1) سورة نوح، الآية: 16.

(2) سورة القصص، الآية: 73.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض (الحديث: 1997)، والبيهقي في شعب الإيمان، = باب: في الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال الباطل، (الحديث: 8129).

(4) سورة المؤمنون، الآية: 60.

وحكايةً لقولهم.

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾.

قرئ: ﴿يقتروا﴾ بكسر التاء وضمها، ويقتروا بتخفيف التاء وتشديدها والقتر والإقتار والتقتير التضييق الذي هو نقيض الإسراف، والإسراف مجاوزة الحدّ في النفقة ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسول الله ﷺ: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾[1]، وقيل: الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي فأما في القرب فلا إسراف وسمع رجل رجلاً يقول: لا خير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوّجه ابنته وأحسن إليه فقال: وصلت الرحم وفعلت وصنعت رجاء بكلام حسن، فقال ابن لعبد الملك: إنما هو كلام أعدّه لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد أيام دخل عليه الابن حاضر، فسأله عن نفقته وأحواله فقال: الحسنة بين السيئتين فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية، فقال لابنه: يا بنيّ أهذا أيضًا مما أعدّه وقيل: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعامًا للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبًا للجمال والزينة، ولكن كانوا يأكلون ما يسدّ جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحرّ والقرّ، وقال عمر رضي الله عنه: كفى سرفًا أن لا يشتهي رجل شيئًا إلا اشتراه فأكله[2] والقوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء، وقرئ قوامًا بالكسر وهو ما يقام به الشيء يقال: أنت قوامنا بمعنى: ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص المنصوبان أعني بين ذلك قوامًا جائز أن يكونا خبرين معًا وأن يجعل بين ذلك لغوًا، وقوامًا مستقرًا وأن يكون الظرف خبرًا وقوامًا حالاً مؤكدة وأجاز القراء أن يكون بين ذلك اسم كان على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن كقوله: (لم يمنع الشرب منها غير إن نطقت) وهو من جهة الإعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس بقوي لأنّ ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة.

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾.

﴿حرّم الله﴾ أي: حرّمها والمعنى: حرّم قتلها و﴿إلا بالحق﴾ متعلق بهذا القتل المحذوف أو بلا يقتلون ونفي هذه المقبحات العظام عن الموصوفين بتلك الخلال العظيمة في الدين للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم، كأنه قيل: والذين برأهم الله وطهرهم مما أنتم عليه والقتل بغير الحق يدخل فيه الوأد وغيره، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أيّ الذنب أعظم قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك قلت: ثم أيّ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت: ثم أي قال: أن تزاني حليلة جارك.[3] فأنزل الله تصديقه، وقرئ يلق فيه أثامًا، وقرئ يلقى بإثبات الألف وقد مر مثله والأثام جزاء الإثم بوزن الوبال والنكال ومعناهما قال:

جزى الله بن عروة حيث أمسى عقوقًا والعقوق له أثام

وقيل: هو الإثم ومعناه يلق جزاء أثام، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه أيامًا أي: شدائد يقال: يوم ذو أيام لليوم العصيب.

يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾.

﴿يضاعف﴾ بدل من يلق لأنهما في معنى واحد كقوله:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا نجد حطبًا جزلاً ونارًا تأججا

وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب، وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال وكذلك يخلد، وقرئ ويخلد على البناء للمفعول مخففًا ومثقلاً من الإخلاد والتخليد، وقرئ وتخلد بالتاء على الالتفات.

إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾.

﴿يبدل﴾ مخفف ومثل وكذلك سيآتهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسنات؟ **قُلْتُ:** إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعًا، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه وإبدال السيئات حسنات أنه يمحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات الإيمان والطاعة، والتقوى وقيل: يبدلهم بالشرك إيمانًا وبقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصانًا.

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾.

يريد ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى الله ﴿متابًا﴾ مرضيًا عنده مكفرًا للخطايا محصلاً للثواب، أو فإنه تائب متابًا إلى الله الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين وفي كلام بعض العرب لله أفرح بتوبة العبد من المضل الواجد والظمآن الوارد والعقيم الوالد أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعًا حسنًا وأي مرجع.

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 29.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، 5/46، (الحديث: 5721).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة الفرقان، باب: = «والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر». (الحديث: 4761)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، الحديث: (141 ـ 86).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾.

يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها تنزهًا عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه لأنّ مشاهدة الباطل شركة فيه ولذلك قيل: في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الإثم لأنّ حضورهم ونظرهم دليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة فيه لأنّ الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة، ورغبتهم في النظر إليه وفي مواعظ عيسى ابن مريم عليه السلام إياكم ومجالسة الخطائين، ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وعن قتادة مجالس الباطل وعن ابن الحنفية اللهو والغناء وعن مجاهد أعياد المشركين. ﴿اللغو﴾ كل ما ينبغي أن يلغى ويطرح والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به مروا معرضين عنهم مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم، والخوض معهم كقوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾(1) وعن الحسن رضي الله عنه لم تسفههم المعاصي وقيل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا، وقيل: إذا ذكروا النكاح كنوا عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لم يخروا عليها﴾ ليس بنفي للخرور وإنما هو إثبات له ونفي للصمم والعمى كما تقول: لا يلقاني زيد مسلمًا هو للسلام لا للقاء والمعنى: أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصًا على استماعها وأقبلوا على المذكر بها وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية مبصرون بعيون راعية لا كالذين يذكرون بها، فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

قرئ ذريتنا وذرياتنا وقرة أعين وقرّات أعين سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجًا وأعقابًا عمالاً لله يسرون بمكانهم وتقرّ بهم عيونهم وعن محمد بن كعب ليس شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو الولد إذا رآه يكتب الفقه وقيل: سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم أراد أئمة فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس، ولعدم اللبس كقوله تعالى: ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ وأرادوا جعل كل واحد منا إمامًا أو أراد جمع آمّ كصائم وصيام أو أرادوا جعلنا إمامًا واحدًا لاتحادنا واتفاق كلمتنا، وعن بعضهم في الآية ما يدل على أنّ الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها وقيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة.

فإن قُلْتَ: من في قوله: من أزواجنا ما هي؟ **قُلْتُ:** يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل: هب لنا قرّة أعين ثم بينت القرّة وفسرت بقوله: من أزواجنا وذرياتنا ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرّة أعين وهو من قولهم: رأيت منك أسدًا أي: أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة وصلاح.

فإن قُلْتَ: لم قال: قرّة أعين فتنكر وقلل؟ **قُلْتُ:** أما التنكير فلأجل تنكير القرّة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قيل: هب لنا منهم سرورًا وفرحًا وإنما قيل: أعين دون عيون لأنه أراد أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم قال الله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾(2)(3) ويجوز أن يقال: في تنكير أعين أنها أعين خاصة وهي أعين المتقين.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

المراد يجزون الغرفات وهي العلالي في الجنة فوحد اقتصارًا على الواحد الدال على الجنس والدليل على ذلك قوله وهم في الغرفات آمنون، وقراءة من قرأ في الغرفة ﴿بما صبروا﴾ بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم وعلى الفقر وغير ذلك وإطلاقه لأجل الشياع في كل مصبور عليه، وقرئ يلقون كقوله تعالى: ولقاهم نضرة وسرورًا ويلقون كقوله تعالى: يلق أثامًا، والتحية دعاء بالتعمير والسلام دعاء بالسلامة يعني: أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم، أو يحيي بعضهم بعضًا ويسلم عليه، أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة عن كل آفة اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا مع أهل رحمتك وارزقنا مما ترزقهم في دار رضوانك.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

لما وصف عبادة العباد وعدد صالحاتهم وحسناتهم وأثنى عليهم من أجلها ووعدهم الرفع من درجاتهم في الجنة أتبع ذلك بيان أنه إنما اكترث لأولئك وعبأ بهم وأعلى

---

(1) سورة القصص، الآية: 55.

(2) سورة سبأ، الآية: 13.

(3) قال أحمد: والظاهر أن المحكي كلام كل أحد من المتقين، فكأنه قال: يقول كل واحد منهم: اجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة= أعين، وهذا أسلم من تأويله، فإنّ المتقين وإن كانوا بالإضافة إلى غيرهم قليلاً، إلا أنهم في أنفسهم على كثرة من العدد، والمعتبر في إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلاً في نفسه لا بالنسبة والإضافة، والله أعلم.

ذكرهم ووعدهم ما وعدهم لأجل عبادتهم، فأمر رسوله أن يصرح للناس ويجزم لهم القول: بأن الاكتراث لهم عند ربهم إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيئًا يبالي به، والدعاء العبادة وما متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل: وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم يعني: أنكم لا تستاهلون شيئًا من العبء بكم لولا عبادتكم وحقيقة قولهم: ما عبأت به ما اعتددت به من فوادح همومي ومما يكون عبأ على كما تقول: ما اكترثت له أي: ما اعتددت به من كوارثي، ومما يهمني وقال الزجاج في تأويل ما يعبأ بكم ربي: أي وزن يكون لكم عنده، ويجوز أن تكون ما نافية ﴿فقد كذبتم﴾ يقول: إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتد بعبادي إلا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار ونظيره في الكلام أن يقول: الملك لمن استعصى عليه إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمري فقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك وقيل: معناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة.

فإن قُلْتَ: إلى من يتوجه هذا الخطاب **قُلْتُ:** إلى الناس على الإطلاق ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب، وقرئ فقد كذب الكافرون وقيل: يكون العذاب لزامًا وعن مجاهد رضي الله عنه هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى لزامًا، وقرئ لزامًا بالفتح بمعنى: اللزوم كالثبات والثبوت والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتنهه الوصف والله أعلم بالصواب. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الفرقان لقي الله يوم القيامة وهو مؤمن بأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الشعراء مكية

طسٓمٓ ﴿١﴾.

﴿طسم﴾ بتفخيم الألف وإمالتها وإظهار النون وإدغامها.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾.

﴿الكتاب المبين﴾ الظاهر إعجازه وصحة أنه من عند الله والمراد به السورة أو القرآن والمعنى آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين.

لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾.

البخع أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء وهو عرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حدّ الذابح ولعل للإشفاق يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ لئلا يؤمنوا ولامتناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا وعن قتادة رضي الله عنه ﴿باخع﴾ نفسك على الإضافة.

إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾.

أراد آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه ﴿فظلت﴾ معطوف على الجزاء الذي هو ﴿ننزل﴾ لأنه لو قيل: أنزلنا لكان صحيحًا ونظيره فأصدق وأكن كأنه قيل: أصدق، وقد قرئ لو شئنا لأنزلنا وقرئ فتظل أعناقهم.

فإن قُلْتَ: كيف صح مجيء خاضعين خبرًا عن الأعناق؟ **قُلْتُ:** أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله كقوله: ذهبت أهل اليمامة كان الأهل غير مذكور أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل: خاضعين كقوله تعالى: ﴿لي ساجدين﴾[2] وقيل: أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم: هم الرؤس والنواصي والصدور قال: في محفل من نواصي الناس مشهود، وقيل: جماعات الناس يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم، وقرئ فظلت أعناقهم لها خاضعة وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية قال: ستكون لنا عليهم لدولة فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هو أن بعد عزة.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾.

أي وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيرًا إلا جددوا إعراضًا عنه وكفرًا به.

فإن قُلْتَ: كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء! **قُلْتُ:** إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض كأنه قيل: حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به وحين كذبوا به، فقد خف عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية لأنّ من كان قابلاً للحق مقبلاً عليه كان مصدقًا لا محالة ولم يظنّ به التكذيب، ومن كان مصدقًا به كان موقرًا له ﴿فسيأتيهم﴾ وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ﴿ما﴾ الشيء الذي كانوا يستهزؤن به وهو القرآن وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التي كانت خافية عليهم.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾.

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، ونكره الواحدي في التفسير، زيلعي 2/469.

(2) سورة يوسف، الآية: 4.